تفسير سورة

قال تعالى :

(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون[٨] والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[٩] والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم[١٠] .

الحشر

٢

للاستاذ/محمد عزة دروزة

شرح لبعض جمل الآيات :

١ ـ (**الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم**) الضمير في قبلهم عائد للمهاجرين الذين ذكروا قبلها . وجمهور المفسرين أن الدار هي دار الهجرة النبوية (أي المدينة المنورة) وتسمى يثرب . وأن الجملة عنت أهل المدينة الذين آمنوا قبل قدوم المهاجرين إليها .

٢ ـ (**لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا**) الجمهور على أن الضمير في كلمتي (لا يجدون) و (صدورهم) عائد إلى الذين تبوءوا الدار والايمان قبلهم . وأن الضمير في (أوتوا) عائد الى المهاجرين . ومعنى الجملة (إن الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم) لا يشعرون بغيرة ولا حسد مما أعطى للمهاجرين .

٣ ـ (**يؤثرون على أنفسهم**) يؤثرون من الايثار أي يفضلون غيرهم على أنفسهم .
٤ ـ **خصاصة** : فاقة أو حاجة .

مدى الآيات الثلاث :

١ ـ صارت عبارة الآيات واضحة بالشرح السابق لبعض جملها .
٢ ـ والآيات تبدو أنها بيان توضيحي للفقراء المستحقين للفيء والذين يجب إعطاؤهم نصيبا منه . وهم :
اولا ـ فقراء المهاجرين الذين الجئوا إلى الخروج من ديارهم والتخلي عن أموالهم فيها ابتغاء فضل الله ورضوانه ونصرة دينه ورسوله .
ثانيا ـ فقراء الأنصار الذين آمنوا برسالة النبي في دارهم قبل أن يأتي إليها المهاجرون ، ورحبوا بالذين هاجروا إليهم وأحبوهم ، والذين يؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وفاقة . ولا يحسدون ولا يغارون مما يعطي المهاجرون ، حيث وقاهم الله من الشح وهيأ لهم بذلك سبيل الفلاح .
ثالثا ـ فقراء المسلمين الذين آمنوا بعد السابقين لهم في الايمان ، والذين حكت الآية دعاءهم الله ، بأن يغفر لهم ولاخوانهم الذين سبقوهم ، وأن لا يجعل في قلوبهم غلا ولا حسدا ولا حقدا نحوهم وهو الرؤوف بعباده الذين يشملهم بسابغ رحمته . ومن الجائز أن يعتبر فقراء الفئات الثلاث من صنف (المساكين) الذين ذكروا كأصحاب سهم في الفيء ، وتنطبق الصفة التي وصف بها الحديث النبوي المساكين الذي ذكرناه سابقا عليهم فهم لا يجدون غنى يغنيهم ولا يسألون الناس .

الروايات المروية في سبب نزول الآيات :

روى المفسرون ومنهم الطبري وابن كثير والبغوي ما يفيد أن المهاجرين كانوا فقراء لا أرض لهم ولا مال ولا مورد وكانوا عالة على الأنصار . فلما فتح الله ويسر أموال بني النضير ، كلم النبي الأنصار واسترضاهم للنزول عن حقهم فيها حتى يقسمها على المهاجرين فيكفوهم مؤونتهم . وأن معظمهم رضوا بذلك عن طيب خاطر ، ولم يشعروا بحسد ولا غيرة مما اعتزمه رسول الله من توزيع فيء بني النضير على المهاجرين عدا الذين في قلوبهم نفاق ومرض ، وأن النبي قسمه على المهاجرين فقط ولم يعط الأنصار منها إلا ثلاثة كانوا فقراء . وأن الآيات نزلت لتأييد ما فعله رسول الله إلهاما وإشادة بالأنصار الذين تنازلوا عن حقهم .
ونحن في حيرة من هذه الروايات التي رواها معظم المفسرين عزوا إلى ابن عباس لاننا نراها متناقضة مع تقرير الآيات السابقة التي شرعت جميع الفيء للمصالح العامة والمحتاجين لانه تفسير بدون إيجاف خيل وركاب ، فلم يستحق فيه المسلمون

إستحقاقا ملزما كاستحقاقهم في الغنائم التي يحوزون عليها بعد قتال وإيجاف خيل وركاب ومنعت قسمته على المسلمين الميسورين . بل وتتناقض مع روح الآيات نفسها التي جاءت مطلقة وبعضها معطوف على بعض بحيث تبدو بأسلوب قوي أنها أرادت فقراء الفئات الثلاث معا أي المهاجرين والأنصار السابقين والذين آمنوا بعدهم واندمجوا فيهم .

وكل ما يمكن احتماله فيما نرى ـ والله أعلم ـ وفيه توفيق بين روح الآيات وخطوط الروايات أن تكون ما آلت إليه حالة المهاجرين الاقتصادية من ضيق وحرج ، قد ألهمت النبي صلى الله عليه وسلم بقصر الفيء الذي تيسر بدون إيجاف وحرب على المصالح العامة وعلى المساكين واليتامى وأبناء السبيل وذى القربى دون الأغنياء . ولم يكن من المهاجرين أغنياء . وإنما كان من الأنصار . وأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد خاطب هؤلاء فأظهر المخلصون وهم الأكثرية العظمى منهم الرضاء دون اعتراض وحساسية مما جعلهم يستحقون التنويه العظيم الذي تضمنته الآية الثانية .

المدى العظيم في وصف فئات المسلمين الثلاث في الآيات :

ـ أن وصف الفئات الثلاث المخلصة وصف محبب قوي وجدير بالتأمل والاجلال .

ويدل على ما كان من قوة إخلاص السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان لدين الله ورسوله وتحملهم في سبيلهما لجسيم التضحيات فاستحقوا هذا الثناء العظيم .

وفي سورة التوبة آية فيها تنويه قوي بهم وإعلان رضاء الله عنهم ووعد هم بالخلود في الجنات الاخروية وهي : (**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم**)التوبة/ ١٠٠ ..

ولقد أثرت أحاديث صحيحة عديدة عن رسول الله فيها تنويه بما سماهم (أصحابي) الذين عني بهم على الأرجح والله أعلم : (**السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار**) يدل على ما كان لهم عنده من شأن عظيم . من ذلك حديث رواه مسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أصحابي آمنة لامتي . فاذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » وحديث آخر رواه مسلم عن أبي موسى أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم جاء فيه : « الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي . لا تتخذوهم عرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم . ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن أذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله . ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » .

وحديث رواه الشيخان وأبو داوود والترمذي عن أبي سعيد جاء فيه : « لا تسبوا أحدا من أصحابي . فان أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم

ولا نصيفه » وحديث رواه الترمذي عن بريدة جاء فيه : « ما من أحد من أصحابي يموت بأرض الا بعث قائدا ونورا لهم يوم القيامة » وحديث رواه الشيخان عن البراء جاء فيه : « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق . فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله » .

ولقد اقتضت حكمة رسول الله أن يخص الأنصار بالتوبة حيث أثرت عنه أحاديث صحيحة عديدة في ذلك . ومن ذلك .

حديث رواه الشيخان عن أنس جاء فيه : « آية الايمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار » وحديث رواه الشيخان عن أنس أيضا جاء فيه يخاطب امرأة من الأنصار : « والذي نفسي بيده أنكم لأحب الناس إلي ثلاث مرات » وحديث رواه البخاري والترمذي عن أبي هريرة جاء فيه : « لو أن الأنصار سلكوا واديا أو شعبا لسلكت في وادي الأنصار . ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » .

وحديث رواه مسلم والترمذي عن زيد بن أرقم جاء فيه : « اللهم اغفر للانصار ولأبناء الأنصار ولنساء الأنصار » .

وهناك أحاديث أخرى في الفئتين بصورة عامة وفي أشخاص معينين من كل فئة ، فاكتفينا بما تقدم .

استطراد توضيحي للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

ونقول استطرادا أولا : أن كلمة « صحابي » مع أنها تطلق من المسلمين على كل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم من المؤمنين فان روح الأحاديث تفيد كما قلنا قبل ، أن المقصود من كلمة « أصحابي » فيها هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ويجوز أن يدخل فيهم من اتبعوهم باحسان وصحبوا رسول الله في حياته . وثانيا ـ أن كلمة المهاجر تطلق على من هاجر من مكة إلى المدينة قبل فتح مكة وحسب . ولا تطلق على من هاجر بعد هذا الفتح لأن هناك حديثا رواه الشيخان وأحمد وأصحاب السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا هجرة بعد الفتح وإنما نية وجهاد . وإذا استنفرتم فانفروا » . وإن المهاجرين أنواع ، نوع هاجر إلى الحبشة قبل هجرة النبي إلى المدينة ثم جاءوا منها إلى المدينة . ونوع هاجر إلى المدينة من مكة في ظروف هجرة النبي إليها ، ونوع هاجر إلى المدينة بعد مدة ما من هجرة النبي وقبل فتح مكة وظل أثناء هذه المدة مشركا . وأن كلمة (السابقين) بالنسبة للمهاجرين تطلق على النوعين الأولين وحسب .

وثالثا : أن الأنصار أيضا أنواع ، نوع آمن قبل هجرة النبي إلى المدينة وهم الذين ذكروا في الآية الثانية التي نحن في صددها ونوع آمنوا بعد هجرته . وأن كلمة (السابقين) للأنصار تطلق على النوع الأول فقط .

استطراد ثان لتوضيح جملة (**الذين تبوءوا الدار والايمان**) .

إن ملخص ما ذكرته كتب السيرة والتفسير هو أن النبي صلى الله عليه وسلم

بعد موت عمه أبي طالب ، حاميه ، وبعد موت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها التي كانت من أقوى مشجعيه ومؤيديه ذهب إلى الطائف لعله يجد نصيرا فخاب أمله حتى رشق بالحجارة فخرج كسيرا ، وأخذ يناجي ربه في طريق عودته قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . ياأرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين . وانت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري . إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » وأرسل بعد ذلك لبعض زعماء مكة يطلب منهم أن يدخل في جوارهم فرضي بعضهم . وأخذ بعد ذلك يعرض نفسه على قبائل العرب ووفودهم التي كانت تأتي إلى مكة في الحج ، وعرض نفسه في الجملة على جماعة من الخزرج من أهل يثرب ، وكان ذلك في السنة العاشرة من بعثته فدعاهم إلى الاسلام وتلا عليهم القرآن ، فانشرحت صدورهم وكانوا يسمعون من اليهود الذين في مدينتهم أنه يوشك أن يبعث الله نبيا من العرب ، وقالوا لعله هو فلا يسبقنكم اليهود إليه . فآمنوا وقالوا له إنا تركنا قوما بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك وسنعرض عليهم أمرك فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك وهؤلاء الجماعة هم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث ورافع بن مالك وقطبة بن عامر وعقبة بن عامر وجابر بن عبدالله رضوان الله عليهم . ولما رجعوا أخبروا قومهم وأخبروا جماعة من قبيلة الأوس ، القبيلة العربية الثانية التي كانت تسكن يثرب ، فانشرحت صدورهم ، فلما كانت السنة القابلة جاء وفد خليط من القبيلتين واجتمعوا برسول الله عند هضبة من هضاب مكة الخارجية فآمنوا ، فأرسل معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه داعيا وقارئا وإماما ، فأخذت دائرة الاسلام تتسع حتى لم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج الا ودخله الاسلام .

لما كانت السنة القابلة وهي الثالثة في تاريخ الاتصالات جاء وفد كبير مؤلف من نحو سبعين من القبيلتين فاجتمع بهم فآمنوا ورحبوا بهجرته وهجرة أصحابه إلى مدينتهم وعاهدوه على الدفاع عنه ونصرته واختار منهم اثنى عشر رجلا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فسماهم النقباء « وهم أسعد بن زرارة وعبدالله بن رواحة ورافع بن مالك والبراء بن معرور وعبدالله بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وسعد بن الربيع من الخزرج وأسيد بن حضير وسعد بن خثيمة ورفاعة بن عبد المنذر من الأوس رضوان الله عليهم » . وبعد ذلك أذن النبي صلى الله عليه لاصحابه بالخروج فأخذوا يخرجون فرادى تاركين أموالهم ووطنهم في سبيل دين الله ونصرة رسوله وكان الأنصار يتلقونهم بالترحاب والعون ويهيئون لهم المساكن وأسباب المعيشة والاستقرار . وقد تأخر رسول الله بعض الوقت للاشراف على هجرة أصحابه وقضاء بعض واجبات عليه وأمانات لديه للناس . وجن جنون زعماء مكة حينما عرفوا الاتفاق الذي تم بينه

وبين أهل يثرب بعد أن كانوا أيقنوا أن دعوته على وشك الانطفاء وبعد أن وصل أمره إلى ما وصل ورأوا في ذلك خطرا عظيما عليهم وأخبره الله ونجاه وخرج مع رفيقه أبي بكر من مكة ووصل المدينة سالما وهو ما أشارت إليه آية سورة التوبة : (**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم**) ٤٠ . فكانت هجرته أبرك وأعظم ثاني حادث في الاسلام . (والأول نزول الوحي بالنبوة والقرآن عليه لأول مرة) . حيث انفتح الأفق الواسع أمام الدعوة الاسلامية وانتشارها وانتصارها ، وصارت كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا .

ولقد أورد ابن كثير حديثا رواه الامام أحمد عن انس قال « قال المهاجرون يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير فقد كفونا المؤونة وأشركونا في أموالهم حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله » .

وروى البخاري عن أبي هريرة قال : « قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال لا فقالوا تكفونا المونة ونشرككم في الثمرة قالوا سمعنا وأطعنا » .

ولقد آخى رسول الله بين رجال المهاجرين ورجال الأنصار فكان مما فعله الأنصار تجاه من آخاهم معهم النبي أن قاسموهم بيوتهم وأشركوهم في أعمالهم وأموالهم . حتى لقد طلق بعضهم بعض زوجاته لييسر لأخيه المهاجر التزوج بها على ما جاء في كتب السيرة والتفسير . وكل هذا بوادر مؤيدة لما وصف الله الأنصار في قوله : (**يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**) .

وفي صدد الآية (**ومن يوق شح نفسه**) أورد ابن كثير حديثا عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله يقول « لا يجتمع غبار في سبيل الله ولا دخان في جوف عبد أبدا ، ولا يجتمع الشح والايمان في قلب أبدا » وحديثا عن جابر رواه مسلم أيضا قال : « قال رسول الله إياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » وهكذا يتساوق التلقين النبوي مع التلقين القرآني في هذا الشأن كما هو في كل شأن .

تطبيق عمر بن الخطاب رضي الله عنه للآيات :

لقد روى الامام أبو يوسف في كتاب الخراج والامام أبو عبيد في كتاب الأموال والكتابان من أقدم ما وصل إلينا . والامامان من مشاهير القضاء والفقه وأئمة الحديث في الصدر الاسلامي الأول . إن الذين اشتركوا في فتح العراق طلبوا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقسم عليهم أرض السواد العراقي فأبى وقال

لهم . إنه لجميع فقراء المسلمين في جميع أجيالهم حقا في ذلك استنادا إلى هذه الآيات ، وأبقاها كذلك . فيؤخذ ريعها من مستأجريها ويوزع على فقراء المسلمين حيث يمكن القول أن عمر رضي الله عنه اعتبر الآيات توضيحا للمستحقين للفيء من فقراء المسلمين على اختلافهم سواء أكانوا من المهاجرين أم الأنصار الأولين أم من الذين آمنوا بعد الرعيل الأول من هؤلاء وأولئك ثم اعتبرها مستمرة الحكم بالنسبة لجميع أجيال المسلمين في مستقبل الأيام وصيغة الآيات وعطف بعضها على بعض ومجيئها بعد ذكر مصارف الفيء مما يدعم هذا الاعتبار .

وفيما فعله عمر رضي الله عنه صورة مما كان يفهمه كبار أصحاب رسول الله من التوجهات القرآنية كما هو ظاهر . وهو عمل فريد رائع في بابه فيه تدشين لما يمكن أن يسمى أملاك الدولة التي ترصد على فقراء المسلمين تطبيقا عمليا ، تشريع مساعدة هؤلاء الفقراء على ما تلهمه الآيات .

ويتبادر لنا أن عمر رضي الله عنه اعتبر فقراء المسلمين من الفئات الثلاث بمثابة (مساكين) في معنى الكلمة الذي جاء في الحديث النبوي الذي أوردناه سابقا ، (المسكين هو الذي ليس له غنى يغنيه ولا يسأل الناس) . ويتبادر لنا كذلك أن عمر رضي الله عنه لابد من أنه لحظ جميع مصارف الفيء ، وكان ينفق على حسب ما تقتضيه المصلحة . وأن ما روى إنما كان لتطبيق مدى الآية وعدم توزيع الأرض على الفاتحين وإبقائها في مثابة الفيء والمصارفة والله تعالى أعلم .

والمستفاد من كتاب الأموال للأمام أبي عبيد أن عمر رضي الله عنه سلك في أرض الشام المفتوحة ما سلكه في أرض العراق .

قال تعالى :

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون(١١) لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولون الأدبار ثم لا ينصرون(١٢) لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون(١٣) لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون(١٤) كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم(١٥) كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين(١٦) فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين(١٧) .

شرح لبعض الكلمات والجمل :

١ ـ جدر : جمع جدار : والراجح أن الكلمة هنا بمعنى السور أو الحواجز

الحجرية التي تكون حول الدور .
٢ ـ بأسهم بينهم شديد : عداواتهم فيما بينهم شديدة .
٣ ـ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى : تظنهم بما يكون من ظواهرهم أنهم متحدون مع أن قلوبهم متخالفة متفرقة .

شرح لمدى الآيات وتعليق عليها :

١ ـ في الآيات وصف لمشهد من مشاهد وقعة بني النضير وإجلائهم وموقف حلفائهم المنافقين في ذلك وحالة اليهود النفسية والاجتماعية .
٢ ـ ولقد حاول حلفاؤهم المنافقون تشديد عزيمتهم ووعدوهم بعدم طاعة أحد فيهم . وبالقتال إذا قوتلوا وبالخروج معهم إذا خرجوا فكذبتهم الآيات فيما قالوه ووعدوا به . وقررت أنهم حتى لو قاتلوا معهم لولوا الأدبار ولما انتصروا وأنهم كالشيطان الذي يزين للانسان الكفر ثم يتخلى عنه بعد أن يكفر يقول له إني بريء منك . وتكون عاقبة الفريقين النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين .

٣ ـ ولقد استولى الرعب على اليهود حينما حوصروا حتى صاروا يخافون المسلمين أكثر من خوفهم من الله . ولا يجرأون على مواجهتهم في الحرب . وقصارى أمرهم أن يقاتلوا وهم يتحصنون في قراهم المحصنة أو من وراء أسوارها وجدرها .
٤ ـ وأن عداوتهم لبعضهم شديدة وقلوبهم متفرقة وإن بدا في الظاهر أنهم متفقون . وأنهم في حالتهم هذه كحالة جماعة من قبلهم لم يلبثوا حين حوصروا . أن خارت عزائمهم وذاقوا شر ما صنعوا .

٥ ـ والآيات تعقيب على ما كان في ظروف حادث بني النضير وموقف اليهود والمنافقين التي أوردنا خلاصة ما ذكرته الروايات عنها قبل . ويتبادر لنا والله أعلم أن آيات السورة من مطلعها إلى آخر هذه الآيات قد نزلت بعد انتهاء الحادث تعقيبا عليه من جهة ، وتوضيحا لحالة اليهود والمنافقين من جهة ، وتشريعا لما اقتضت حكمة التنزيل تشريعه من جهة ، وتبريرا وتعليلا لكل ذلك من جهة في آن واحد .
ويتبادر لنا أن بعض الأفعال التي جاءت في صيغة المضارع أو المستقبل هي أسلوبية ولا تعني أن تكون الآيات قد نزلت قبل انتهاء الحادث والله أعلم .
٦ ـ ولقد قلنا قبل ، أن حلفاء بني النضير هم من الخزرج ، ومن قوم عبدالله أمير المنافقين . ولقد كان الجمهور الأكبر من الخزرج مخلصين مؤيدين للنبي صلى الله عليه وسلم في موقفه من اليهود ، فكان في ذلك خذل وخزى للمنافق الكبير ومن تابعه من عشيرته في نفاقه وموقفه ، وصاروا كما حكت الآيات أعجز واجبن من أن يفوا بوعدهم لليهود . وعاد تحريضهم وتثبيطهم على هؤلاء بخسارة أشد مما كان ينالهم لو لم يفعلوا .

٧ ـ ولقد قال بعض المفسرين أن الآية (١٤) في صدد اليهود والمنافقين معا . وقال بعضهم أنها في صدد اليهود . وهذا هو الأوجه فيما نرى . ولذلك صرفناها إلى اليهود فقط ، فاليهود فقط هم الذين كانوا يقيمون في قرى محصنة في ضاحية منعزلة عن مساكن العرب .

٨ ـ وفي سورة البقرة آيات تفيد أن اليهود كانوا ـ فيما بينهم ـ مختلفين متنازعين وهي الآيات ٨٤ و ٨٥ هذه :

(وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) .

والآية (٨٤) مؤيدة لذلك فيما يتبادر لنا . ولقد كان بين الأوس والخزرج خلاف ونزاع قبل الاسلام فتحالف فريق من اليهود مع هؤلاء وفريق من اليهود مع أولئك نتيجة لما كان من خلاف ونزاع فيما بينهم . ولقد أجلى النبي بني قينقاع فلم يتحرك بنو النضير وبنو قريظة لنصرتهم . وأجلى بني النضير فلم يتحرك بنو قريظة لنصرتهم مما فيه تأييد آخر من الوقائع .

ولعل المصالح والمنافع الشخصية كانت تلعب دورها فيما بينهم .

٩ ـ وحادث إجلاء بني قينقاع المذكور الذي رجحنا ان الآية (١٤) قد عنته هو أول حوادث إجلاء اليهود عن المدينة . وقد وقع بعد قليل من وقعة بدر . وكان لبني قينقاع سوق يشتغلون فيه بالصياغة والحدادة . وكانوا حلفاء للخزرجيين بزعامة زعيم المنافقين عبدالله . وصار يصدر منهم بعض مواقف منحرفة عن العهد الذي أخذه النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود حينما استقر في المدينة . حيث أمنهم على حرياتهم الدينية والمدنية وأبقاهم على محالفاتهم مع الأوس والخزرج على شرط أن لا يغدروا ولا يتجسسوا ولا يخونوا المسلمين ويقوموا بما يوجبه عليهم الحلف من واجبات . فأنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروي الرواة ان آيات سورة آل عمران هذه : **(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار)** ١٢ و ١٣ نزلت فيهم كما رووا أن آيات سورة الانفال هذه : **(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)** ٥٥ ـ ٥٨ نزلت فيهم أيضا .

ولقد روى أن بني قينقاع أجابوا النبي لما أنذرهم بغطرسة وقالوا له لا يغرنك ما لقيت من نجاح في بدر فقد لقيت قوما لا عهد لهم في الحرب . ولو قابلتنا لعرفت أننا نحن الناس . ولقد جاءت امرأة اعرابية إلى صائغ ليصنع لها حلية فأخذ بعض فساقهم يضايقونها ويريدونها أن تكشف مفاتنها فأبت فكشفوا عورتها بحيلة

دنيئة فصرخت « واقوماه » فجاء عربي فقتل اليهودي الذي كشف عورتها فشد اليهود عليه فقتلوه وكبر الشر . فكان هذا هو الحادث الذي جعل النبي يزحف عليهم مع جماعة من أصحابه وينذرهم بالجلاء العاجل قائلا : إنني أخاف من خيانتهم . وتدخل حليفهم زعيم المنافقين وطلب من النبي الرفق بهم ، فسايره وسمح لهم بأن يخرجوا مع أموالهم وسلاحهم .

١٠ - ولقد روى المفسرون روايات في معنى واحد وصيغ متعددة عن ابن عباس في صدد جملة : (**كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك**) في الآية ١٦ إنها تمثيل لشخص كان ناسكا أعيا الشيطان إضلاله فاحتال عليه حتى كسب ثقته . وعلمه اسم الله الأعظم فصار يشفي المجانين المصروعين والمرضى ، ثم خالط الشيطان فتاة جميلة حتى جنت ، فجاءوا بها إلى هذا الناسك فأعجبته ، وحينئذ استطاع الشيطان أن ينفذ إليه ويزين له مضاجعتها ثم قتلها لاخفاء جريمته ، وجاء أهلها لتفقدها فشعر الناسك بالورطة التي تورط بها ، فظهر له الشيطان وقال له إن سجدت لي أنقذك من الورطة فسجد له وحينئذ قال له إني بريء منك إني أخاف الله . وقد تكون هذه القصص مما كان يتداوله الناس في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وعلى كل حال فالآية جاءت في معرض التمثيل والتنديد والافحام) .

والآيات وإن تكن في معرض مشهد من مشاهد السيرة النبوية فان فيها تلقينات تصل مستمد إلهام وقوة للمخلصين من المسلمين تجاه أعدائهم وتجاه المخامرين منهم مع الأعداء ، إذا هم كانوا أشداء أقوياء القلوب والعزائم والايمان . لأن الأعداء والمخامرين في هذه الحالة لن يلبثوا أن يخزيهم الله وينخذلوا إزاء مثل هذا الموقف وتظل كذلك مستمد إلهام في تفتيح مواقف المخامرين والمنافقين والمتضامنين بأي أسلوب مع الأعداء وفي عدم قبول أي عذر لهم قد يعتذرون به باسم الصداقة أو المصلحة أو المحالفة أو الواقع . وإن المصلحة العامة العليا هي التي يجب أن يكون لها الاعتبار الأول .

(ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون[١٨] ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون[١٩] لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون[٢٠] .

مدى الآيات وتعليق عليها :

لم يرو المفسرون مناسبة لنزولها . والمتبادر أنها جاءت معقبة على الآيات السابقة ، التي ندد فيها بالمنافقين ومواقفهم وباليهود الكافرين ، لتوصي المؤمنين المخلصين بتقوى الله ومراقبته والتفكير فيما يقدمونه لغدهم من أعمال يجزون

عليها خيرا كانت أم شرا . ولتحذرهم من أن يكونوا مثل الذين أهملوا تقوى الله وواجباتهم نحوه وتمردوا على أوامره وانحرفوا عن جادة الحق ، فأهملهم نتيجة لذلك ولم يوفقهم إلى ما ينجي أنفسهم ، فوقعوا في شر أعمالهم وفيها تشجيع وتنويه وتطمين للمخلصين ، وتنديد وإنذار للمنافقين والكفار من أهل الكتاب موضوع الآيات السابقة .

ولقد روى ابن كثير في سياق تفسير الآية الأولى حديثا أخرجه مسلم والامام أحمد جاء فيه : « إنه جاء إلى رسول الله قوم من مضر حفاة عراة شديدي العياء فتغير وجهه لما رأى ما بهم من الفاقة فأمر بلالا فاذن وأقام الصلاة فصلى بالناس ثم خطبهم ، فقرأ آية النساء (**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**) ثم قرأ الآية الأولى من الآيتين ثم وقف عند جملة (**ولتنظر نفس ما قدمت لغد**) وقال هو أن يتصدق الرجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره حتى قال ولو بشق تمرة . فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ثم تتابع الناس حتى تكوم كومان من طعام وثياب فتهلل وجه رسول الله » .

حيث ينطوي في هذا الحديث الرائع كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخرج العبرة والموعظة من الآيات ويوجه الناس بهما نحو الخير والبر والتشجيع عليهما بمثل هذه القوة ؟ وكيف كان أصحاب رسول الله يسارعون في الاستجابة إبتغاء رضوان الله ورسوله رضي الله عنهم ؟

قال تعالى :

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون(٢١) هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم(٢٢) هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون(٢٣) هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم(٢٤) .

معنى بعض المفردات :

١ ـ القدوس : المبالغ في التنزه والطهارة ٢ ـ السلام : المرجو للامن والسلام .
٣ ـ المؤمن : واهب الأمن والطمأنينة . وقرنت (المؤمن) بمعنى المعتمد الذي يركن إليه ويؤمن إليه .
٤ ـ المهيمن : المراقب المسيطر على عباده .
٥ ـ الخالق : قيل أن الكلمة بمعنى المقدر لما يوجده على ما اقتضته حكمته .
٦ ـ البارىء : قيل أن معناها الموجد لما يخلقه من العدم أو المنشىء له أو المميز

لأنواعه .

مدى الآيات وتعليق عليها :

ولم يرو المفسرون رواية النزول لهذه الآيات أيضا . والمتبادر أنها استمرار للتعقيب على الآيات السابقة وبقصد تقرب كون ما في القرآن من الآيات والمعاني والحكمة والموعظة والقوة الروحانية والهداية لو نزل على جبل لخشي الله وتصدع من خشيته . وكون الذي أنزله هو الله ذو الأسماء الحسنى الذي يسبح له ما في السموات والأرض ، ويعنو كل شيء فيها لعظمته وقدرته المقدس المتنزه عن كل شائنة ، الذي لا يعزب عن علمه وأحاطته بشيء ظاهر وخفي وحاضر وغائب ، العظيم في رحمته واهب الأمن والسلام ، القوي الذي أوجد كل شيء من العدم وميز أنواعه ، الذي يفعل إلا ما فيه الحكمة ، المتعالي عن كل شريك وند . وكون ذلك كله يستوجب تأثر الناس بالقرآن وخشيتهم وخضوعهم جميعا لله اعترافا وعبادة وطاعة . وكون ذلك مما بينه الله تعالى إلى الناس لعلهم يتنبهون ويتفكرون فيما يجب عليهم نحوه ويؤدونه له . وأسلوب الآيات نافذ من شأنه أن يثير في النفس الطيبة الشعور بهيبة الله وعظمته وقوة القرآن وروحانيته . وقد انطوى فيها معنى التأنيب والتنديد للذين لا يتأثرون بالقرآن ولا يخلصون لله وهم الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، الذين حذرت الآيات السابقة المؤمنين من أن يكونوا مثلهم . وقد احتوت مجموعة رائعة من أسماء الله الحسنى لم تجتمع في مجموعة قرآنية أخرى مع التنبيه على أنها وردت متفرقة في آيات متعددة .

ولقد أورد ابن كثير في سياق تفسير الآيات حديثا اخرجه الامام أحمد عن معقل ابن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ الآيات الثلاث من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات في ذلك اليوم ، مات شهيدا . ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة » .

وفي الحديث تنويه قوي بفضل الآيات وقوة روحانيتها . ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب بحديثه أصحابه المؤمنين المخلصين الصالحي الأعمال ، حيث يسوغ هذا أن يقال إن الشخص الذي يعمل به ويريد أن يحصل على المنزلة المذكورة فيه لابد من أن يكون متحفظا بالايمان والاخلاص وصالح العمل في الوقت نفسه ..

ولقد أورد المفسر نفسه في سياقها أيضا حديثا عن أبي هريرة عن رسول الله جاء فيه : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة » وفي رواية « وهو وتر يحب الوتر » متفق عليه وهي : « الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . الملك القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ،

الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .

ومما ذكره ابن كثير في صدد هذا الحديث أنه أخرج في الصحيحين من حديث سفيان بن عينه عن أبي الزناد الأعرج عنه وأن البخاري رواه عن أبي اليمان عن شعيب عن أبي حمزة عن أبي الزناد . وأن الترمذي أخرجه في جامعه عن الجوزماني عن صفوان عن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب وقال عنه أنه حديث غريب .

وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة ورد في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث . ورواه ابن حبان في صحيحه عن طريق صفوان . ورواه ابن ماجة في سننه عن طريق آخر عن موسى عن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعا فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان . ثم قال ابن كثير بعد هذا إن الذي عول عليه جماعة من الحفاظ إن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبدالملك بن محمد الصفاي عن زهير بن محمد أنه بلغه من غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أي أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينه وأبو زيد اللغوي والله أعلم .

ثم قال : « ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الامام أحمد في سننه عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الحلبي عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله انه قال : « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحا . فقيل يارسول الله أفلا نتعلمها قال بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها ثم قال وذكر الفقيه الامام أبوبكر ابن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه الأحوذي في شرح الترمذي أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم . فالله أعلم .